لست بأولهم

انتفضت من مكاني أجوب بناظري كل الحضور من صبيان القرية أتشممهم وكأنني أبحث عن شيء ما.

لم أكن أمارس هوايتي أو أستعرض موهبتي التي علمني صديقي إياها.

تسمرت أقدامي أمام ذلك الصبي الصغير ذي الشعر الكثيف، الجالس على مقربة من الساقية القديمة.

أخذت أراقبه بناظري أينما غدا أو راح، ثم أعود لأقفز وأحط حول صديقي الذي لم يلحظ اختفائي المفاجئ على غير عادتي.

في الصباح، شاهدته يتسلل من باب الحظيرة، أسرعت أركض ناحيته وأنبح بأعلى صوتي وأتقدم ناحيته مرة، وأتأخر مرة أخرى، وأنبش بمخالبي في الأرض بعدما تأكدت ظنوني، حتى صدَّرْت الرعب إلى قلبه، فأخذ يرتعد ويبكي وألقى بالجبن من بين يديه ثم فر هاربًا.

نهرتني جدة صديقي ورمقتني بعينيها، ولملمت بقايا الجبن ثم انصرفت وصديقي عالق في حيرة من أمري، تساوره الشكوك والظنون ونظراته ترمي بسهام الشك والحيرة.

وجدته يتساءل في صمت أفهمه بمجرد أن تتلاقى أعيننا عن مدى تغير مزاجي وطباعي في الفترة الأخيرة.

ومرت الأيام وسهام الشك تقتلني وتؤلمني وتفتك بأعماق فؤادي، حتى انطفأت البهجة من حولي، والجدة تشتكي من سرقة الجبن من حظيرة الماشية.

تركني وانزوى بعيدًا وهجرني، ولم يعد يلاعبني حتى تغير طعم الأيام، وبدت مرارتها تبعث بشراراتها من حولنا.

في المساء، وجدتهم يتغامزون وهم يشيرون إليَّ، أحسست ساعتها بأن هناك شيئًا ما يحاك ضدي، وكانت صدمة عنيفة هزت أعماقي.

سمعته ينادي عليَّ، هرولت إليه مسرعًا لأحتضنه، وأنا أهز ذيلي وألف وأدور من حوله متناسيًا ذاكرة الأحداث ومرارة الأيام السابقة.

لم يفتح ذراعيه هذه المرة ورمقني بناظريه، وأخذني بجواره وانطلق بالعربة الكارو وسط القرية، تدفعنا العربة وتموج بنا وسط المزارع والحقول ووسط القرى المتراصة على حافة النهر الكبير.

سويعات قليلة مرت علينا، أحسست به وكأنه يحمل عبئًا ثقيلًا على كاهله، حينما أبصرت العبرات تغرق عينيه، وهو يحتضنني ويبكي، لم أتمالك نفسي ساعتها فغرقت عيناي.

حملني وهو يبكي ويتمتم كمن يحدث نفسه، وبِيَدٍ تملكتها رعشة خفيفة قذف بي في النهر الكبير.

لحظات قليلة حاولت وحاولت، ولم أستطع سوى الاستسلام وكأنني أساق إلى حتفي على غير إرادتي بعدما سُلِبَتْ قواي.

تذكرته لحظة أن أخذني من تحت أمي، وأنا ما زلت صغيرًا ليرعاني، ويرضعني بنفسه من حليب الماشية لحظة أن استعصى عليَّ أن ألقف ثدي أمي، وسط تكدس ونهم إخوتي الأكبر مني حجمًا.

تذكرته حين كنا نلهو ونلعب ونجري هنا وهناك، وسط الحقول وعند الساقية القديمة على مشارف القرية كانت صحبتنا.

عدت لأجدني أغوص وأغوص بأعماق النهر الكبير المظلمة، توقفت أنفاسي بعد امتلاء صدري الصغير بمياه النهر.

ارتطمت بقاع النهر، يَكَادُ يغشى عليَّ وكادت نبضات قلبي أن تتوقف.

استجمعت بقايا قواي المنهارة، وسلمت نفسي لمويجات النهر حتى لفظني النهر إلى سطحه.

لحظتها.. لحظتها فقط تحركت أقدامي تضرب صفحات مياه النهر لأتحرك ببطء ناحية الشاطئ.

لحظات قليلة مرت على كدهر طويل، أحمل على كاهلي ما لا تحمله الجبال لا أصدق نفسي، أخاله كابوسًا راودني.

أخذت أنفض بقايا الماء العالق على جسدي، وأبحث عنه هنا وهناك، حتى رأيته يختفي خلف الحجب؛ حيث تعانق السماء الأرض.

جلست وحيدًا تطاردني الذكريات تارة وتدفعني الأشواق إلى العودة تارة أخرى.

كيف أعود! وهم من أساءوا الظن بي وألقوا بي في ظلمات النهر.

لحظات عصيبة مرت عليَّ بمرارتها، وأنا عالق ما بين وفائي وكرامتي.

أدوس على قلبي حتى يتمزق ويئن وينزف، ولن أنحنيَ أبدًا، فلست بأول المنبوذين وآخر اليتامى.

كثيرة هي تلك الصراخات التي تعج بصدري، وتطرح همهمات تختلج أعماقي حتى إنني أكاد أن أسمعها.

رويدًا رويدًا سأتناسى الحزن الدفين، وتلك الأشجان مع الصبر ستمسي ذكرى.

ومهما تجاوزت تلك الشكوك، ومن أساءوا الظن بي سأصطدم بمعالمهم.

دائمًا ما تبدوا صورتهم أمامي وفي مخيلتي تعود ذكراهم من حين وآخر على الرغم من مرور سنوات طوال.

قد ظننت لوهلة قصيرة من الزمن –وأنا أعيش معهم– أنني منهم ولكنني أصبت بخيبة أمل عندما أبصرتهم وهم يتغامزون ويشيرون إليَّ.

كيف وأنا المؤتمن الأول عليهم وعلى ماشيتهم!

لملمت بقايا نفسي، ورحت أحث الخطى وسط الظلام، أتحرك ببطء شديد خطوة تلو الأخرى ناحية القرية.

جلست بجوار الساقية القديمة على مشارف القرية، ألتقط الأنفاس أتحسس ترابها أتشممه وأنا أبكي.

أخذتني أقدامي؛ حيث البيت الكبير، وجلست ما بين عيدان الحشائش أراقبهم من بعيد.

لم أتمالك نفسي عندما رأيته يبكي وينعي فراقي، بكيت وبكيت، وودت لو احتضنته ومسحت دموعه وواسيته، حتى إنني كدت أن أهرول ناحيته لأحتضنه.

انتظرت وأنا على هذا الحال، لا أعرف كم مضى على من الوقت، وبينما أنا ما بين اليقظة والنوم، إذ تشممت رائحة تهب من بعيد وسط الظلام.

شبح يقترب، إنه سارق الجبن يتسلل إلى داخل الحظيرة، أسرعت أهرول ناحية بابها واحتجزته بداخلها، وأخذت أنبح بأعلى صوتي، أنادي عليهم ليفيقوا من سباتهم مرة.. مرتين.. ثلاث مرات.

ظنوا أنها أضغاث أحلام تراودهم، ولكنهم سرعان ما نهضوا مسرعين ناحية الصوت الذي غاب عنهم منذ الأمس القريب.

أمسكوا به وبيده قطع الجبن وقيدوه بالحبال.

وجدتهم يطأطؤون رؤوسهم خجلًا مني يتسابقون يريدون أن يحتضنوني.

هرول صديقي ناحيتي فاتحًا ذراعيه، فتراجعت إلى الوراء ودمعت عيناي، فإنني لم أحزن على إلقائي في غياهب النهر الكبير، قدر ما حزنت جراء نظرات الشك والحيرة التي رأيتها في عينيه وانزويت خلف الحجب، مع ما تبقى من كرامتي أتجرع مرارة الحرمان.